أم عربيـــة

للآنسة سهير القلماوى

لياسمينة الآداب

مكة ارض الله المقدسة فى حصار. الكعبة بيت الله الحرام يروح فيها الجند ويجيئون . الوية هنا ورماح هناك . اسلحة وآلات وجنود داخل المدينة . قائدهم رجل فى السبعين هو عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز . وجنود حول المدينة كفاهم قوة انهم جند الشام . وكفاهم رهبة ان قائدهم شاب فى الثلاثين هو الحجاج بن يوسف الثقفى . جو مكة كله هلع والتياع وكأنما كل شىء يوحى الى اهلها ان استسلموا فالحرب ضروس والموت على الابواب .

ما جت مكة بكثرة الوافدين عليها ليؤدوا فريضة الحج . ولكن جند الشام لم يترك مكانه ، وجند مكة لم يبرح محصراً لا يستطيع خروجا . لم يستطع الحجاج ولا جنده الطواف بالبيت بل ظلوا محرمين مكانهم لابسين الدروع فوق الأحرام ولم يستطع ابن الزبير الخروج الى عرفة فنحر هديه فى مكة . جاء جند الشام فافسد على الحجاز كل شىء ، سلب الامن اهلها ، وشوه شعائر الدين المقامة بها ، وبشرها بافول مجدها السياسى بتحول مركز الخلافة عنها . الشام الفتية جاءت لتحتظر الحجاز الهرمة الى ان تقنع بما يقنع به الهرم من الحياة .

هدأت الحركة فى مكة بعض الشىء منذ رجع الحاجون الى اوطانهم . ولكن نفوس اهلها فى حركة واى حركة . هلع وخوف وقلق . لقد طال بها الحصار وضاقت نفوس اهلها فلا يستطيعون احتمال المزيد ، طال الحصار واشتد الضيق ، وصعب الامتحان وكلما صعب الامتحان قل عدد الناجحين - كل يوم يسير فوج الى القائد الشاب طالبا الامان . التفت الزبير فاذا هو قليل الاعوان قليل العدة ، شيخ تربطه بالحياة خيوط واهية . مامصيره ؟ الموت . ومامصير آماله وهى آمال قطر واحلام شعب ؟ الم يكد يتم له الامر لولا ظهور مروان فى الميدان ؟ الم يكن العراق خاضعا له بالامس بعد ان قتل مصعب المختار ؟ ولكن مصعبا قتل ، وبقتله افلتت العراق من يد الزبيريين ، وغدا سيقتل هو ويفلت الحجاز من يد الزبيريين بعد أن لم يبق بها الا هو

« اما والله انا لانموت حتف انفنا كبقية آل ابى العاص ، وانما نموت قعصا بالرماح وقتلا تحت ظلال السيوف »

هكذا خطب الناس بالامس لما نعى اليه أخوه مصعب . هو لايخاف الموت ، وانما آمال لايحملها الاهو ، آمال كاد ان يصل اليها ومازال يأمل فى الوصول اليها . آمال قطر . آمال شيعة له فى جميع الاقطار العربية ، من يقوم بها من بعده ؟

خمسون ليلة واهل مكة يعانون من الحصار كل ضيق . لابد من انفجار . لابد من حدث حاسم . لقد كادت ان ترهق الارواح . جند الشام لايضيرهم استمرار الحصار ، ولكن اهل مكة ، اهله وشيعته ورعيته يعانون من الاهوال . صمم ابن الزبير على القتال . ابناه حمزة وحبيب لايزالان معه ، وفيان من حيرة الفتيان احدهما يقود فريق ، والآخر يقود الفريق الآخر . وخرج ابن الزبير من بيته فى الليلة الخمسين ليلقى على ابنيه تعاليم معركة الغد .

« حمزة ! . . حمزة ! . حبيب ! . . حبيب ! »

ولكن احدا لم يجب . وبدأت الحقيقة تتكشف لناظره الحزين قليلا قليلا ، فاذا هى اشنع مما كان يقدر . حمزة وحبيب ابناه تركاه فى هذا الضيق ! والى اين ؟ الى عدوه ، الى من حاصره ، وأذاقه هو واعوانه كل كرب وضيق . وتلاشت صورة القلة من الاعوان امام هذه الخيبة . اى الم ؟ اى يأس ؟ اى حسرة ؟ لم يعد شىء يرجى .

بينما اليأس يحرق قلب الشيخ حرقا اذ بعروة بن الزبير يناديه . ماذا يريد منه عروة ؟ عروة يناصر عبد الملك وهو فى امان من هذا الحصار وهذا الجند . ماذا يبغى عروة منه فى ساعة اليأس هذه . عروة رسول امل جديد جاء ليعرض عليه الامن بشروط مرضية . هم يعطونه كل ماله : املاكه ، سلامته ، حريته التامة ، كل شىء الا الخلافة . وفى ساعة اليأس يرى اليائس بصيص النور ضياء ساطعا وهاجا . ولكن السن املت عليه التدبر فليتروقليلا وليستشر . ولكن من يستشر ؟

فى ركن من أركان بيت عبد الله بن الزبير قبعت عجوز فى المائة من سنها . عجوز لها من تجارب الحياة ذخر ثمين ، ولها من الصحة ورجاحة العقل رغم هرمها ماشهرت به ، ولكن لها فوق هذا كله منزلة فى نفس عبدالله لم يبلغها احد . هى أمه هى اسماء بنت ابى بكر الصديق . فليستشرها هى .

واقترب الابن من امه الوالهة التى جثم الحزن على قلبها طويلا . لقد فجعت حديثا فى ابنها مصعب بعد أن ملأ ذكره الآفاق . بعد ان استولى على قطر من أهم الاقطار العربية وهو العراق ، بعد ان قاتل فقتل فى ميدان الجهاد كريما شريفا شهما شهيدا . ولكن حزنها لم يشفع لها لدى الدهر فما زال الدهر يلوح لها بين حين وآخر ، يسلب اينها عبد الله اعز اولادها واطيبهم ذكرا واكثرهم جهادا ، دنا ابنها منها وساءلها :

— كيف تجدينك ياأماه ؟

— انى لشاكية .

فقال لها وكأنه يحدث نفسه اليائسة :

— ان فى الموت راحة . فاجابته :

— لعلك تمنيه لى وما احب ان اموت حتى يأتى على احد طرفيك . اما قتلت فاحتسبك . واما ظفرت فقرت عينى بك

صدمه جواب امه ، وكأنما كان جوابا عما اتى يستشيرها فيه ، كيف يسألها ؟ ولكنها لاتعرف عما عرضوه عليه شيئا . وفى صوت متهدج قال لها :

— اماه لقد خذلنى الناس حتى ولدى واهلى ولم يبق معى الا اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونى ماأردت من الدنيا . . فما رأيك ؟

وجاشت فى صدر الام عواطف ونوازع شتى كلها تتزاحم فلا يتاح لاحدها فرصة التغلب او الظهور — حنان ، شفقة ، خوف ، شجاعة ، حب لولدها ، حب لوطنها ، حب لربها وللحق ولرسول الحق ولتعاليم الحق . ظلت كل هذه تتصارع فى صدر العجوز صراعا عنيفا ، وظلت الام تعانى آلام هذا الصراع حينا ، وآلام الهزيمة لكل عاطفة تهزم منها . كل عاطفة جزء منها فصراعها يؤلمها وهزيمتها تكاد تقتلها .

ولكن حميتها العربية انتصرت اخيرا وتغلبت من كل هذه العواطف : العواطف الخلقية باسماء بنت ابى بكر الصديق .

وفى صوت ملؤه اليقين قالت لولدها :

— انت اعلم بنفسك : ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه اصحابك . ولاتمكن من رقبتك غلمان بنى امية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت : اهلكت نفسك ومن قتل معك . . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل احسن .

القتل أحسن ولكن ماذا بعد القتل ؟ لن يتورع الجبار من ارتكاب شىء ، لن يردعه دين ولن يردعه خلق . فقال وكأنما الحقيقة تمثلت له قبل وقوعها .

— أماه ! انى اخاف ان قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى

ورفعت ستر المستقبل المغيب عن عين الام فرأت ابنها مصلوبا ، وتمثل لها ما سيلاقيه المصلوب من احتقار وتشهير وضحك واستهزاء ، ولكن الحق . الحق و ح من سفكت دماؤهم فى سبيله املت عليها الجواب

— الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ . فامض على بصيرتك

واستعن بالله

ثم سرت روح الام الى ابنها فتشجعت من صدره كل يأس وكل خوف ، وظلت كلماتها تتردد فى نفسه كوجيب قلبه ، القتل أحسن ، القتل احسن ، حلت الشجاعة محل الياس ، وحل جلال الحق محل الخوف من الموت والمثلة . ثم بعد يأس لمس الا لثالث التكلى التى ستفقده بعد فقد اخيه الامس .

— اماه انى مقتول ان عاجلا او آجلا ، فلا يشتد حزنك وعلى الامر نفسه . ان ابيت لم يتعبد ابدا لركب ولا عمر عائشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى امان ، ولم يتعبد ظلم مسلم او معاهد ، ولم يبلغنى ظلم من عمالى فرضيت به بل انكرته ، ولم يكن شىء عندى آثر من رضى ربى .

ثم رفع رأسه الى السماء قائلا

— اللهم لاأقول هذا تزكية لنفسى ولكن اقوله تعزية لأمى حتى تسلو عنى

خيم الصمت على الام وولدها وقد احست انها ستراه لآخر مرة كما احس هو بذلك . وتوقرق الدمع حائرا ملتهبا فى عين العجوز . الدمع الذى ظل محتبسا من اهوال الايام الاخيرة انفجر فى هذا الموقف الذى يجل عن كل دمع .

بدأ انها يحس شيئا من الاحجام بعد ان صمم على القتال والاستشهاد ، وخاف ان يستولى عليه هذا الشعور ان لم يسرع بتنفيذ ماصمم عليه . وكأن الام مازالت بروحها تدفعه الى الاستشهاد كما حضته بقولها منذ قليل فسرع نحو الباب بعد ان قبلها قائلا

— ، اماه لاتدعى الدعاء لى ،

— ، لا ادعه لك ابدا ، وكأنها تريد ان تذكره فقالت

— ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ،

خرج ابن الزبير من عند امه فاذا الفجر لاح ، والمؤذن يدعو الى الصلاة . فليذهب الى المسجد اذن يعنى ان يبعث الله الى القلب طمأنينة يختار بها فلاقى اليوم

صلى ابن الزبير صلاة حارة ارسل بها الى ربه ماوسعه من الشكوى ، ومن استطاع من الرجاء ، واحس بان روحا من العالم الاعلى حلت فى نفسه من جديد ، فلم يعد شيخا ضعيفا بل اصبح شابا مندفعا فى ميدان الاستشهاد .

ظل ابن الزبير بعد الصلاة فى المسجد طويلا ترن كلمات امه فى اذنه حينا ، ويصلى الى ربه حينا آخر فيقول :

يارب ان جنود الشام قد كثروا وهتكوا من حجاب البيت استارا

يارب انى ضعيف الركن مضطهد فابعث الى جنوداً منك انصارا